٤ ـ الفـــن

للكاتب الفرنسي بول ميزيل

بقلم الدكتور محمد بهجت

التمثيـــل(*)

كنت أتحادث مع رودان بمرسمه في أصيل يوم من الأيام ، وقد أخذ الظلام يرخي سدوله فسألني فجأة :

« هل سبق لك أن عاينت تمثالاً قديماً على ضوء مصباح ؟ »

فأجبته في شيء من التعجب : « كلا ، أبداً » .

« حسن ، سأدهشك . فلربما بدا لك أن معاينة التماثيل في غير ضوء النهار أمر غير مألوف . صحيح أنك تستطيع أن تستجليها على أكمل وجه في وضح النهار ولكن تمهل قليلاً فسأطلعك على تجربة تخرج منها بفائدة محققة » .

وعند ذلك أشعل مصباحاً أخذه بيده ثم قادني إلى تمثال من رخام قائم على منصة في ركن من أركان المرسم . كان نسخة جميلة مصغرة من تمثال زهرة مديسي Venus di Medici وقد احتفظ به رودان هناك كيما تستعر به نار وحيه وإلهامه عند ما يعمل .

« اقترب مني » قال ذلك ثم رفع المصباح إلى جانب التمثال وقربه منه حتى كاد يلمسه ، وسلط الضوء كله على الجسم ، ثم سألني عما عساي أن ألاحظه . ولأول لحة أخذت أخذاً عجيباً بما بدا لي فجأة إذ أظهر الضوء وهو من ذلك الوضع نتوءات وانخفاضات هينة عديدة منتشرة على سطح الرخام مما لم أكن أتوقع مشاهدته . وهـذا ما أجبت به رودان على سؤاله فصاح موافقاً :

« حسناً ، انتبه جيداً » . وعند ذلك أدار المنصة التي يقوم عليها التمثال . وكنت لا أزال أبصر في جسم التمثال وهو يدور عدداً عديداً من تلك الفحصات التي تكاد تدق على الأعين . وبدا لي مما كان بسيطاً في أول الأمر غير بسيط ، وإذ ذاك رفع رودان رأسه وصاح مبتسماً : « أليس ذلك عجيباً ؟ اعترف بأنك ما كنت تتوقع اكتشاف الكثير من تلك التفاصيل . انظر إلى تلك التموجات العديدة على الجزء الذي يصل الفخذ ببقية الجسم . لاحظ كل انحناءات الورك الشيقة ، ثم هنا ، تلك الفحصات[1] المليحة الفاتنة التي على طول الأرداف » .

قال ذلك في صوت خفيض به حرارة التعبد ونبرات الخشوع وقد انحنى فوق التمثال كأنما شغف به حباً وقال : « حقاً إنه من لحم » . ثم لمعت عيناه وقال : « يخيل إليك أنه قد من العتاق والقبل لا من الحجر الصلد » . وبعد أن وضع يده على الدمية قال فجأة : « عند ما تلمس هذا التمثال تحس كأن الحرارة تسري فيه » وبعد لحظات قليلة عاد فقال :

« حسن . وما قولك الآن في تلك الفكرة السائدة عن الفن الإغريقي ؟ يقولون ، وأخص بالذكر أصحاب المدرسة القديمة الذين نشروا هذه الفكرة ، إن القدماء في عبادتهم للمثل الأعلى احتقروا الجسد أيما احتقار وأرخصوا من شأنه وأبوا أن يُظهروا في أعمالهم دقائق الحقائق المادية العديدة . يدعون أن القدماء أرادوا أن تجاريهم الطبيعة في خلق جمال متخيل مبسط يروق للذهن فقط ولا يستثير الحواس . ويضربون لذلك الأمثال التي يتوهمون أنهم وقعوا عليها في الفن القديم ، ويتخذون من ذلك حجة على تهذيب الطبيعة وتحنيثها وقصرها على حدود ضيقة جافة فاترة عقيمة لا تمت إلى الحقيقة بصلة .

ومما لامشاحة فيه أن الإغريق بالغوا في إظهار ما يجب إظهاره بما أوتوا من عقول منطقية جبارة . لقد أفصحوا عن أهم المميزات البارزة في النوع الإنساني ، ومع ذلك فإنهم لم يطمسوا شيئاً من التفاصيل الدقيقة الحية . إنهم كانوا يقنعون بمزجها وإدماجها في المجموع . وبينما تراهم مولعين بالحركات المنسجمة المتزنة الهادئة تراهم يخضعون أو يضعفون في غير ما تعمد كل ما شأنه أن يؤثر في جمال أو رواء حركة من الحركات ، ولكنهم تحاشوا أن يمحوها كل المحو .

إنهم لم يبتدعوا قط طريقة أو أسلوباً من المهايات والأضاليل ، كان ديدنهم أن يظهروا الطبيعة كما يرونها ، يحدوهم في ذلك جهم

(*) رأيت أن أضع هذه اللفظة للكلمة الانجليزية Modelling مشتقاً إياها من كلمة مثال Model

(١) جمع فحصة وهي من فحصة الصبي : نقرة ذقنه ، استعملت هذه اللفظة للدلالة على النقر التي في الجسم .

واحترامهم لها . ولقد أثبتوا إثباتاً قاطعاً فى كل المناسبات شغفهم الشديد بالجسد. وإنه لمن البله أوالخبل أن نعتقد أنهم كانوا يحتقرونه ، إذ لم يثر جمال التجسيم الإنسانى شعوراً أرق وأعمق مما أثاره فى نفوس الأغريق ، حتى لتبدو تماثيلهم التى نحتوها كأنما يطيف بها طائف من النشوة والوله . وعلى هذا الأساس يُفسر الفارق العظيم الذى لا يتصور بين المثل الأعلى الزائف عند المدرسة القديمة وبين الفن الأغريقى . فبينما نرى فى أعمال القدماء أن تعميم الخطوط ما هو إلا مجموع أو « كل » يتكون من التفاصيل والدقائق ، نرى التبسيط المدرسى خوراً وضعفاً ، نراه خاوياً كالطبل الأجوف . وبينما نرى الحياة تهيمن على عضلات التماثيل الأغريقية النابضة وتبعث فيها الحرارة والدفء نرى دُمى الفن المدرسى كأنما أثلجها الموت » .

وهنا صمت رودان هنيهة عاود بعدها حديثه قائلا :

سأطلعك على سر عظيم . أتدرى كيف أمكن أن نحس دبيب الحياة فى تمثال ڤينوس الذى نحن بصدده ؟ بواسطة علم التمثيل . ولربما بدت لك هذه الكلمات تافهة عادية ولكن صبراً فستبصر غور أهميتها بعد حين .

أخذت علم التمثيل عن معلم يسمى كنستانت كان يعمل فى المرسم الذى ظهرت فيه أول مرة كتمثال محترف . فبينما كان يراقبنى يوما وأنا أعمل فى رأس يكلله أكليل من النار إذ صاح بى قائلا : يا رودان ! إنك لا تسير بهذا فى الطريق السوى . فكل أوراقك منسطحة ولهذا فهى لا تبدو طبيعية . اجعل أطارف بعضها متجهة نحوك حتى يشعر من يراها أن لها أبعادا وأغوارا. عملت بمشورته ؛ ولشد ما دهشت من النتيجة التى حصلت عليها .

ثم عاود كنستانت نصيحته قائلا : فلتذكر دائما ما سأقوله لك الآن . عند ما تطبع فى الطين أو تحفر لا تنظر إلى الجسم فى طوله ولكن فى ثخانته ، ولا تعتبر سطحاً من السطوح إلا كحد أو نهاية لحجم ما ، أو كالطرف الذى يوجهه إليك ذلك السطح . إنك ان تمارس ذلك تحصل على علم التمثيل ؟ ولقد وجدت هذه القاعدة مفيدة أيما فائدة . ومن ثم طبقتها على صنع التماثيل . فبدلا من أن أتصور أجزاء الجسم مسطحات كثيرة الانبساط أو قليلة أبرزتها كنتوءات ذات أحجام داخلية . وقد حاولت جهدى أن يدل كل نتوء فى الصدر أو الأعضاء على عضلة أو عظمة تحت الجلد ، وهكذا يبدو صدق تماثيلى منبعثاً من الداخل كالحياة نفسها لا سطحياً تافها .

ولقد تبين لى الآن أن الأقدمين مارسوا هذا الضرب من التمثيل بحذافيره . ومما لا ريب فيه أن ما نراه من نضارة وطراوة أعمالهم التى تنبض بالحياة انما يرجع إلى اتباعهم هذه الطريقة فى أشغالهم .

وهنا تأمل رودان تمثال الزهرة من جديد ثم سألنى فجأة :

« ما رأيك يا جيزيل ؟ هل اللون صفة من صفات التصوير أو النحت ؟ »

فأجبته : « من صفات التصوير طبعا » .

فقال : « حسن . انظر إلى هذا التمثال » . قال ذلك ثم رفع يده بالمصباح إلى أعلى ما يستطيع لكى يلقى بكل الضوء على صدر الدمية ثم قال :

« انظر إلى الأضواء القوية التى على الثديين ، وإلى الظلال الثقيلة التى فى ثنايا اللحم ، ثم إلى هذه الصفرة الباهتة ، ثم إلى تلك الألوان الأثيرية التى تحفق على أدق أجزاء هذا الجسم المقدس ، ثم إلى تلك الأجزاء المظللة بظلال خفيفة حتى لتبدو كأنها تذوب فى الهواء وتندمج فيه . ماذا تقول فى كل ذلك ؟ ألا يخيل إليك أنها قطعة موسيقية مؤلفة من الأبيض والأسود أو من الأضواء والظلال ؟ »

« وربمـــا بدا لك فى قولى بعض التناقض الظاهرى إذا ما قررت بأن التمثال العظيم لا يقل مهارة فى فن الألوان عن أكبر المصورين ، بل عن أكبر الحفارين engravers ، وذلك لأنه يتفنن بكل حذق فى كل ضروب التمثيل البارز وصنوفه ، ويمزج حدة الضوء بهدوء الظل فتجىء قطعه سارة ممتعة كأجل الرسوم المنقولة عن ألواح النحاس (etchiny) .

والآن — وقد أزدت أن أصل بحوارى إلى هذه النتيجة — أقول إن اللون هو زهرة التمثيل الجميل ، وإن اللون والتمثيل صنوان لا يفترقان ، وهما اللذان يسبغان على كل قطعة خالدة من أعمال النحت ذلك المظهر الوضىء للجسم الحى » .

دكتور محمد بدوى
قسم الباثين